رئاسة

الاحبار الرومانيين على كنائس الشرق
في القرن الثالث للنصرانيّة

للاب يوحنّا راي اليسوعي

من أعمل نظر عقلٍ الصائب تقابل بين عقائد البيعة الكاثوليكيّة في عهدنا والآثار التاريخيّة في بدء انتشار الدين النصراني لا يلبث ان يجد بين كليهما اتفاقاً تامّاً بحيث يرى لاوّل وهلةٍ ان الكنيسة الحاضرة هي هي الجماعة التي انشأها المسيح ووكل امرها الى رسلهِ الحواريين لا تختلف عنها ذرّة. فانك مهما بحثت في معتقدات هذه الكنيسة وجدت اصلها واضحاً في اسفار العهد الجديد او التقليد الرسولي الصادق. ولا غرو فانهُ لا يمكن ان يصيب جسمَ المسيح الادبي اختلافٌ أيّاً كان كما لم يلحق بجسدهِ الارضي شبهُ الفساد (المزمور ١٥: ١٠ وكتاب الاعمال ٢: ٢٧) لان المسيح اليوم كما كان امس وكما يكون غدًا (عب ١٣: ٨)

الّا انّ هذه العقائد التي تجاهر بها الكنيسة الكاثوليكيّة في أيامنا مع انطباقها التام على عقائد الكنيسة الاصليّة لم تتضح في القرون الاولى اتضاحها في الاعصار التابعة ومثال ذلك مثال الجنين الذي يحتوي بالقوة كل الاعضاء التي هي في الرجل التام البنية وان لم تظهر اعضاء الصغير لكل العيان كما تراها في الكبير عند كمال نشأتهِ

وكأني بالرب لذكرهِ السجود قد استثنى من هذا الحكم عقيدةً جوهريّة وهي رئاسة القديس بطرس وخلفائهِ الاحبار الرومانيين فشاء ان يشهرها علانيةً في انجيلهِ الكريم لمّا جعل بطرس الرسول صفاةً يبني عليها بيعتهُ وسلّمهُ رعاية خرافهِ ونعاجهِ ثمّ طبع في قلوب المؤمنين الاولين هذا التعليم الاساسي فتراهُ شائعاً منتشراً في عهد الرسل انتشارهُ في أيام عزّ البابويّة وشرفها الباذخ

وقد كتبنا سابقاً في هذه المجلة مقالتين جمعنا فيهما شواهد عديدة تبيّن ان كنائس الشرق فضلاً عن الغرب كانت تعترف اعترافاً باهراً برئاسة الحبر الروماني وسيطرتهِ التامّة عليها في امور الدين وذلك منذ القرن الاول (المشرق ٣: ٢) والثاني (٣: ٤٤٢) للمسيح. وقد بدا لنا اليوم ان نواصل هذا البحث ونجمع بعض آثار القرن الثالث التي تؤيد هذه

العقيدة وتجمعها كالبناء المرصوص الذي لا يقوى على نقضه عدو

كان الجالس على السدّة البطرسيّة في أوائل القرن الثالث احد اجلّاء الاحبار القديس زيفيرنوس الشهيد الذي دبّر الكنيسة جمعاء رغماً عن الاضطهادات والمحن احسن تدبير. على انّ سلطتهُ السامية ظهرت خصوصاً مع الشرقيين. فان هراطقة كثيرين كانوا نفثوا سمّهم في الشرق كالادريين (gnostiques) وغيرهم لكنّهم لمّا رأوا ان مساعيهم لا تفوز بالمرام ما لم يغروا زعيم الكنيسة الرومانيّة انتقلوا الى رومة وجعلوا يدسّون فيها الدسائس الّا ان عين الاحبار المعظمين كانت ساهرة فحكموا عليهم حكماً قاضياً أباد ريحهم. وممّن قضى عليهم نائب المسيح وقتئذٍ اشياع فوطينوس وتاردوطوس البوزنطي واشياع سابليوس كبراكسياس وأبيغونوس واشياع منتانوس وكلّ هؤلاء كانوا قدموا من اقليم آسيّة وسوريّة ومصر الى ام المدائن رجاء ان ينشروا فيها عدوى تعاليمهم ويجتذبوا الحبر الاعظم كما خدعوا غيرهُ من الاساقفة في الشرق. لكنهم صدموا الصخرة التي لا تتزعزع فاخفق مساعيهم وضربهم البابا زيفيرنوس وخلفاؤهُ ضربة لازبة محقت ذكرهم. وممن انتصروا وقتئذٍ الى المنتانيين ذلك العالم الشهير ترتليان فشقّ عصا الطاعة للكنيسة الرومانيّة وكتب ما كتب. الّا ان شتائمهُ نفسها تشهد لرئاسة الكنيسة الرومانيّة ويقرّ بان الحبر الروماني كان يُدعى وقتئذٍ «اسقف الاساقفة» وانهُ «يحلُّ من الكبائر» الذين يأتونهُ تائبين منيبين. قال ترتليان ذلك في رسالته الى براكسياس. ومما اخذهُ على البابا زيفيرنوس في تلك الرسالة انهُ حرم «منتانوس مع ان سلفاءهُ لم يفعلوا» (præcessorum ejus *auctoritates* defendendo) فاقرّ بذلك ان للاحبار الرومانيين الحل والعقد في امور الدين يرجع اليهم في الدعاوي النهائيّة

وممن شهدوا للكنيسة الرومانيّة في القرن الثالث من اهل الشرق احد اركان الكنيسة وعلمائها المبرّزين اوريجانس الشهير فريد عصره ونسيج وحدهِ في زمانهِ. فان من اطلع على تآليفهِ الضخمة التي صبرت على آفات الدهر وجد في كلامهِ عدّة نصوص تثبت سلطان هامة الرسل على جميع الكنائس فكثيراً ما يقابل بينهُ وبين الرسل فيبيّن فضلهُ عليهم في الرئاسة التامّة فتارةً يدعوهُ «الراعي الاعظم» وتارةً يقول انّ «لهُ وحدهُ أُعطيت مفاتيح كلّ السماوات لا مفتاح سماء واحد كبقيّة الرُّسل(١)» وحيناً «انهُ

(١) راجع مجموع الآباء اليونانيين لمين المجلد ١٣ العدد ٦١٢

الصخرة التي بُنيت عليها الكنيسة والتي عليها لا تقوى ابواب الجحيم وان امكنها ان تقوى على اي بشر كان (١ »

وقد اقرَّ اوريجانوس العظيم بسلطان الكنيسة الرومانيَّة ليس فقط باطراء رأسها بل ايضاً فعلاً حين سُعي به الى الحبر الاعظم البابا فابيانوس لما كان يعلّم من التعاليم غير الصوابيَّة . فكتب اوريجانوس الى رئيس الكنيسة ليزكي نفسهُ ويطلب السماح عمَّا فرط منهُ في التعليم مبيناً انهُ معتصم بحبل الكنيسة . شهد بصنيعهِ هذا اوسابيوس القيصري في تاريخهِ (ك ٦ ع ٣٦) قال: « وكتب اوريجانوس الى فابيانوس اسقف رومة يخصوص اورثدكسيَّتهِ (περι της καθ'αυτον ορθοδοξιας). وكرَّر ذلك القديس ايرونيموس (في رسالتهِ ٨٤) وروفين (في جوابهِ على ايرونيموس) وكان كلاهما يؤكد انهُ ارسل للبابا كتاباً يجحد فيهِ اضاليلهِ . فلعمري لو كان سلطان اسقف رومة كسلطان بقيَّة الاساقفة فما كانت الحاجة الى اوريجانوس ان يبرّر نفسهُ امام الحبر الروماني اما كان يكفيهِ ان يخضع لاسقف الاسكندريَّة الذي كان تحت حكمهِ . فليُجبنا الاخوة المنفصلون ان امكنهم

ولكن ما لنا نذكر اوريجانوس ولنا في اسقف الاسكندريَّة نفسهِ دليل لامع على نفوذ الكرسي الروماني . ألا وهو البطريرك العظيم القديس ديونيسيوس الاسكندري فان هذا الحبر الجليل كان عمدة الكنيسة ونوراً ساطعاً يستضيء بهِ المؤمنون في الشرق . بيد انهُ كان في كتاباتهِ الدينيَّة استعمل بعض الالفاظ التي تُشعر بكون الكلمة ابن الله دون الآب الازليّ في الكمال . فللحال كتب الشرقيون الى سنيهِ البابا ديونيسيوس الروماني لينتصر للحق ويدافع عن التعليم الكنسي ففعل وكتب الى اسقف الاسكندريَّة يبين لهُ حقيقة الثالوث الاقدس ويطلب اليهِ بان يُصلح ما لعلهُ فرط منهُ سهواً في التعليم فاجابهُ ديونيسيوس الاسكندري موضحاً صحة اعتقادهِ ومتلافياً ما كان سبباً لشكوك البعض معترفاً بالتعليم الاورثدكسي . وهذا الامر قد اخبر بهِ القديس اثناسيوس العظيم ذاكراً ايمان سلفهِ وخضوعهُ للكرسي الرسوليّ (٢

وليست هذه المرَّة الوحيدة التجأ فيها ديونيسيوس الاسكندري الى رومة وزعيمها

١) راجع شرحهُ على متن مين ج ١٢ ع ٥٢٢ و ٥٢٦

٢) راجع اعمال القديس اثناسيوس الجزء الثاني ع ٥٠٥

الجليل. فانهُ لمَّا ارتاب في امر عماد الهراطقة اثابتُ هو ام باطل كتب الى البابا سكستوس الثاني كتابًا ينبئ عن خضوعه التام الى تعاليم احبار رومة الاعظمين قال (١: «ايها الاخ الاعزّ اني محتاج الى مشورتك وطالب حكمك لئلا يصيبني وهمٌ» ثم عرض المشكل مستعدًّا للعمل بموجب رأيه السامي. وللقديس نفسه كتابان آخران اثبتهما اوسابيوس القيصري (ك ٤ ف ٩ وك ٧ ف ٥) يطلب في الاول من البابا سوتير صدقات ليوزعها على المؤمنين ومذكرًا اياهُ بما «اعتادتهُ الكنيسة الرومانيَّة منذ القدم من مساعدة البائسين الموجودين في جميع الكنائس» وفي الثاني يشكر البابا اسطفان الاول على ما ارسلهُ من الزكاة للمؤمنين وفي جملة ما يقول: «ان الكنيسة الرومانيَّة في كل زمان ساعدت كنائس سوريَّة وعربيَّة في حاجاتها». فناشدتك الله أليس كل هذه الحجج تدلُّ دلالةً بيّنة على اهتمام كنيسة رومة بجميع الكنائس وما ذلك الَّا لتقدُّمها بينها وحنوّها عليها كالام على اولادها الذين تحت حكمها

هذا وفي كلامنا عن القديس ديونيسيوس الاسكندري واستفتائهِ للقديس سكستوس قد مسَّنا مسئلةٌ طالما اتخذها اعداء البابويَّة حجَّة على سلطة الكنيسة الرومانيَّة. فان هذه المسئلة كانت كحجر عثرة لكثيرين من الاساقفة خصوصاً القديس قبريانوس وذلك انَّ هذا القديس الشهيد والمعلِّم البارع كان يذهب الى ان العماد اذا تولَّاهُ الهراطقة كان باطلًا فلا بدَّ من اعادتهِ. فتصدَّى لهُ القديس اسطفانوس الاول وردَّ عليهِ. وتعدَّدت الرسالات بينهما وتحزَّب للقديس قبريانوس اساقفة افريقية وفرميليان اسقف قيساريَّة حتى ارشك البابا ان يحرم قبريانوس والمنتصرين لهُ. ولا نجهل ان في كتابات قبريانوس وفرميليان عبارات تنبئ بغيظٍ وقلة اعتبار للحبر الروماني ولكن من راجع هذه الكتابات بتروٍ لا يرى فيها الَّا شاهدًا جديدًا على سلطة الكنيسة الرومانيَّة. فانَّ قبريانوس وفرميليان لا ينكران سيطرة الكرسي الروماني وانَّما يزعمان ان هذه المسالة تخص التدبير الخاص لا دخل لها في التعليم وفي سياسة الكنيسة العموميَّة. ومهما كان من الامر فانهُ لا احد يجهل ان الجمع النيقاوي وافق في هذا الصدد كنيسة رومة ورذل قول قبريانوس واحزابهِ (٢. وزد على ذلك ان للقديس قبريانوس شواهد عديدة

١) راجع التاريخ الكنسي لاوسابيوس (ك ٧ ف ٢)

٢) راجع تاريخ العلَّامة هرغنروتر (ص ٧٧٨)

يصرّح فيها بسيادة الكرسي الرسولي ورئاسته على جميع الكنائس لا نذكرها هنا لان قصدنا في مقالتنا ان نثبت شواهد على هذا المعتقد للشرقيين دون الغربيين. ولكن ما لا يسعنا السكوت عنهُ انَّ خلف القديس اسطفان على كرسي بطرس لم ينقم على فوميليان اسقف قيسارية ولمَّا علم انَّ الجماعة فشت في مدينته نسي ما كتبهُ سابقًا في حق الكنيسة الرومانيَّة وبادر الى ان يمدَّ اليهِ والى رعيَّتهِ يد المساعدة ويستنقذ من اغلال العبوديَّة عددًا غفيرًا من مرؤوسيهِ. ذكر الامر القديس باسيليوس في رسالته ٢٠١ الى البابا داماسوس

ولكن ليس في القرن الثالث شاهدٌ اغرب على سلطان الكنيسة الرومانيَّة مما جرى في انطاكية لبولس السميساطي واشياعهِ. وانَّ قرّاء الشرق يذكرون الفصل المطوَّل الذي كتبهُ في شأن هذا الاسقف الشهير حضرة الكاتب المحقّق الاب سبستيان رتوثال (راجع المشرق ١: ٩٩١—٩٩٥) وقد ختمهُ (ص ٩٩٤) بذكر المجمع الذي عُقد في انطاكية فنُزل فيهِ ذاك المبتدع وبيَّن ما كان للسدَّة البطرسية من المشاركة في هذا الامر. فانهُ ليس فقط صادق القديس ديونيسيوس على حكم الآباء واثبت قضاءهم ولكن لمَّا استعان السميساطي بزينب ملكة تدمر وضبط الاوقاف الكنسيَّة بالقوة الجبريَّة لم يحتل بحكم المجمع الى ان ثلَّ اوريليانوس عرش ملكة المشرق ودخل انطاكية ظافرًا فاتخذ دُمنس اسقفها القيصر الروماني كحكم يبتُّ المشكل بدرايتهِ. فكان جواب اوريليانوس اهلًا بان يُكتب باحرف ذهبيَّة ليعرف كل الامم حقوق البيعة الرومانية على الكنائس قاطبةً فقال القيصر: «انَّ هذه الاوقاف الواقع عليها الخلاف انما تخص النصارى المشتركين مع اساقفة ايطالية واسقف رومة (٢)». فلهِ درّهُ من جواب نطق بهِ رجل وثنيّ فشهد بذلك انَّ المشركين فضلًا عن المؤمنين كانوا يعرفون رئاسة الكرسي الرسولي في القرن الثالث للمسيح وقد جرى ذلك لا في احدى كنائس الغرب بل في احدى الكنائس الرسوليَّة كنيسة انطاكية التي انشأها هامة الرسل

فيا ليت المعادين لسلطة الاحبار الرومانيين يمعنون النظر في هذه الحجَّة الدامغة فانها وحدها كافية لتزيل من عقولهم كلَّ الشبهات لو كانوا ممن يطلبون النور ولا يكابرون الحق: جعلنا الله واياهم في حظيرة المسيح وتحت حكم الراعي الواحد الذي اقامهُ على قطيعهِ الناطق فانهُ السميع المجيب

٢) راجع تاريخ اوسابيوس القيصري (ك ٧ ف ٣٠)